

وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا

3 ربيع الأول 1446هـ، - 6 سبتمبر 2024م

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَنُورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهَادِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَقَامَ الْكَوْنَ بِعَظْمَةِ تَجَلِيهِ، وَأَنْزَلَ الْهُدَى عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَمُرْسَلِيهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَحَبِيبُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْدُ: فَإِنَّ لِلزَّوْجِ فِي الْإِسْلَامِ مَكَانَةً سَامِيَةً وَقِيَمَةً سَامِقَةً عَالِيَةً، وَلَكِنَّ الْعَجَبَ لَا يَنْقُضِي! لِمَاذَا يَتَهَاوَنُ بَعْضُ النَّاسِ بِقُدْسِيَّةِ الزَّوْجِ وَمَكَانَتِهِ؟! لِمَاذَا لَا يُقَدِّرُ الْبَعْضُ هَذَا الرِّبَاطَ الْإِلَهِيَّ الْمُقَدَّسَ قَدْرَهُ، وَيَتَسَاهَلُ فِي حَلِّهِ وَنَقْضِهِ؟ لِمَاذَا شَاعَ الطَّلَاقُ فِي زَمَانِنَا؟ مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ عَقْدَ الزَّوْجِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَصْفًا عَظِيمًا يَأْخُذُ بِالْأَلْبَابِ وَيَدْعُو الْعُقُولَ إِلَى التَّوَقُّفِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، إِنَّ الزَّوْجَ لَيْسَ مُجَرَّدَ وَرَقَةٍ تُكْتَبُ وَتُوثَّقُ، أَوْ صِيعَةً إِجْبَابٍ وَقَبُولٍ فِي مَحْفَلٍ عَامٍّ، إِنَّهُ الْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: {وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}.

أَنْتَبَهُوا يَا سَادَةَ! إِنَّ وَصْفَ عَقْدِ الزَّوْجِ بِالْمِيثَاقِ الْغَلِيظِ هُوَ عَيْنُ مَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: {وَأَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}.

أَيُّ بَلَاغَةٍ وَأَيُّ رَوْعَةٍ تَصِفُ الزَّوْجَ وَتُوصِلُ قُدْسِيَّتَهُ؟! أَلِهَذَا الْحَدِّ يُرِيدُ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ

أَنْ يُعْظَمَ فِي قُلُوبِنَا وَعُقُولِنَا شَأْنَ الزَّوْجِ؟ إِنَّهُ مِيثَاقُ غَلِيْظٍ، عَهْدٌ مَتِينٌ، شَدِيدٌ قَوِيٌّ،
 صَامِدٌ مَعَ الْأَزْمَاتِ، صُلْبٌ عِنْدَ الْمُشْكَلاتِ، عَصِيٌّ عَلَى النَّقْضِ وَالتَّمْزِيقِ، عَقْدٌ
 مُقَدَّسٌ وَرِبَاطٌ مُؤَكَّدٌ، وَاجِبُ الحِفْظِ وَالصِّيَانَةِ وَالوَفَاءِ.
 أَيُّهَا النَّاسُ! أَقْدِرُوا لِهَذَا المِيثَاقِ الغَلِيْظِ قَدْرَهُ! إِنَّ الزَّوْجَ رِحْلَةً عُمُرٍ جَمِيلَةً، أَنيسُهَا
 الحُبُّ وَالوُدُّ وَالرَّحْمَةُ، زَوْجٌ يَجِدُ عِنْدَ زَوْجِهِ الهُدُوءَ مِنْ ضَجِيجِ الحَيَاةِ، يَلْقَى البَسْمَةَ
 عِنْدَ الضِّيْقِ، وَالرَّاحَةَ عِنْدَ التَّعَبِ، وَالسَّكْنَ عِنْدَ الفَلَقِ!
 وَانظُرُوا إِلَى هَذِهِ الصُّورَةِ البَدِيعَةِ مِنْ زَوْجَيْنِ كَرِيمَيْنِ عَرَفَا قَدْرَ ذَلِكَ المِيثَاقِ الغَلِيْظِ،
 وَالرِّبَاطِ المُقَدَّسِ، فَكَانَ كُلُّ مِنْهُمَا سَدَنًا لِصَاحِبِهِ، دِفْنًا عِنْدَ البَرْدِ، نَسَمَةً فِي القَيْظِ،
 أَمَانًا عِنْدَ الحَوْفِ، طَبًّا لِلجُرُوحِ! فَهَذَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَنْ بُدِيَ بِالوَحْيِ
 الشَّرِيفِ رَجَعَ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهِ سَيِّدَتِنَا أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يَرْجِفُ فُؤَادُهُ،
 وَهُوَ يَقُولُ: زَمَلُونِي، زَمَلُونِي، فَرَمَلْتَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَضَمَّتْ عَلَيْهِ الأَغْطِيَةَ وَالتَّيَّابَ،
 وَهُوَ صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقْصُ عَلَيْهَا خَبَرَ مَا رَأَى، ثُمَّ قَالَ لَهَا: «لَقَدْ خَشِيتُ
 عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ الفَاضِلَةُ العَاقِلَةُ الحَنُونُ تَجَبَّرُ خَاطِرَهُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَ
 اللهُ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصُدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي
 الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ.
 أَيُّهَا السَّادَةُ الكِرَامُ! إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ لِسَكْنِهِ، عَادَ لِزَوْجِهِ، لِيَجِدَ
 عِنْدَهَا الدِّفْءَ وَالْأَمَانَ وَالتَّنْبِيْتَ، وَكَانَتْ زَوْجُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ، فَوَجَدَ
 مِنْهَا كُلَّ حِكْمَةٍ، وَكُلَّ دَعْمٍ، وَكُلَّ نَصْرٍ، وَكُلَّ عَوْنٍ، وَكُلَّ حُبِّ. هَكَذَا يَكُونُ الزَّوْجُ،
 هَكَذَا تَحْلُو الحَيَاةُ!

*

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتَمِ الأنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَبَعْدُ:
فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَأْتِيهِ سَاعَةٌ غَضِبَ، فَتَعْظُمُ فِي عَيْنِهِ عُيُوبُ الطَّرْفِ الْآخِرِ، وَلَكِنَّ
الْعَاقِلَ مَنْ يَرَعَى الْوَدَّ، وَيَتَجَمَّلُ بِالْإِنْصَافِ، وَيُذَكِّرُ أَنَّ ذَلِكَ الزَّوْجَ الَّذِي سَاءَ يَوْمًا
قَدْ سَرَّهُ أَيَّامًا، فَيَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ، وَرَائِدُهُ فِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَعَاشِرُوهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}، وَقَوْلُ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا
آخَرَ.»

وَالْحَقُّ أَنَّ مَقْصَدَ الشَّيْطَانِ الْأَعْظَمَ هُوَ خَرَابُ الْبُيُوتِ! إِنَّهُ لَا يُرِيدُ لِلْبُيُوتِ أَنْ تَسْتَقِرَّ،
لَا يُحِبُّ لِلْأَسْرِ أَنْ تَتَّمَّاسَكَ، يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ
عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمَهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ،
فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ، فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ
حَتَّى فَرَقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ.»!
أَيُّهَا السَّادَةُ! لَقَدْ تَرَبَّيْنَا فِي تَرَاثِنَا الْمِصْرِيِّ الْأَصِيلِ أَنَّ الرَّجُلَ يُنْظَرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ السُّوءِ
وَالْإِنْتِقَاصِ إِذَا لَمْ يَكُنْ خَلِيقًا بِالْحِفَاطِ عَلَى سَلَامَةِ بَيْتِهِ وَاسْتِقْرَارِ أُسْرَتِهِ، كَمَا تَرَبَّيْنَا أَنَّ
الزَّوْجَةَ لَا تَتْرُكُ بَيْتَ زَوْجِهَا، وَإِنَّمَا تَصْبِرُ عَلَى أَرْمَاتِ حَيَاتِهَا، وَأَنَّ الزَّوْجَيْنِ حَكِيمَانَ
يَعْرِفَانِ كَيْفَ يُدِيرَانِ خِلَافَاتِ الْبَيْتِ، يُقَدِّرُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، يَسْمَعُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ،
يَحْتَوِي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، يَغْفِرُ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرَ، كُلُّ ذَلِكَ فِي رِعَايَةِ مَنْ أَبٍ وَأُمٍّ يَشُدَّانِ
عَلَى أَيْدِي الزَّوْجَيْنِ، يَنْقُلَانِ لَهُمَا خِبْرَاتِ الْحَيَاةِ بِرَجَاحَةٍ وَكِيَاسَةٍ وَحِكْمَةٍ وَسَعَةٍ وَتَأَنٍّ
وَصَبْرٍ

اللَّهُمَّ احْفَظْ بُيُوتَنَا وَأَنْزِلْ عَلَيْهَا السَّكِينَةَ وَالْمَوَدَّةَ وَالْأُلْفَةَ وَالرَّحْمَةَ